لهود

مجلة تراثية فصلية محكمة

تصدرها وزارة الثقافة - دار الشؤون الثقافية العامة

المجلد السادس والثلاثون العدد الثاني لسنة ٢٠٠٩م

WWW.ATTAWEEL.COM

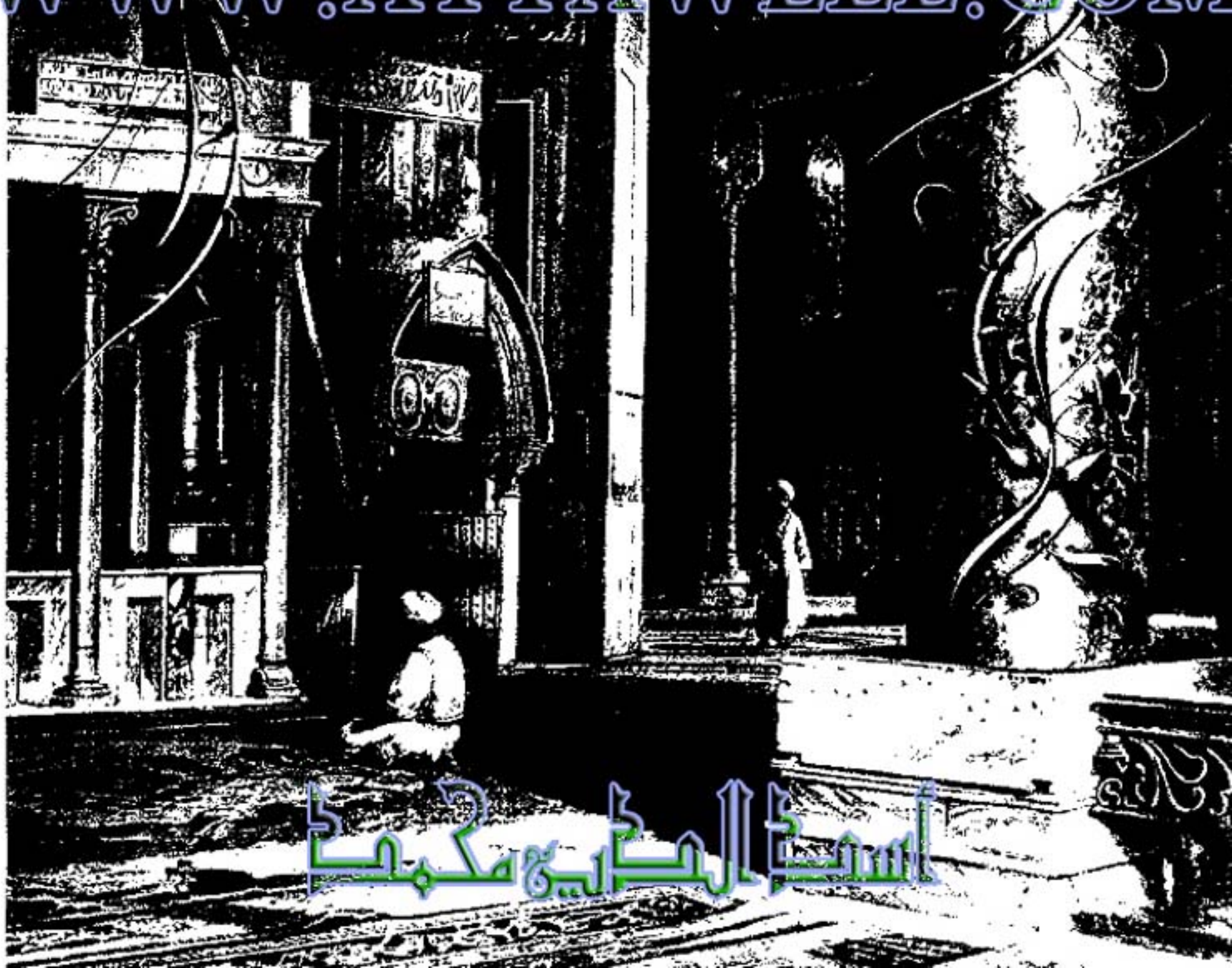

أسعد الحكيم

مفهوم الشعر عند ابن خفاجة

يحياوي رشيد
باحث وناقد - المغرب

لم يكن ابن خفاجة (ت ٥٣٢هـ) شاعرا فقط بل كان ناقدا أيضا وان لم يخلف كتبا في النقد. ولكن مقدمته لديوانه رغم قصرها وايجازها تفصح عن كونه شاعرا على دراية ووعي بآليات العملية الابداعية في الشعر، وعن انه كان ايضاً على اطلاع على الحركات والاتجاهات النقدية التي عرفها الفكر العربي قديما.

ان فكرة التقديم للديوان تحمل في حد ذاتها طرافة واهمية. ولا نراها مختلفة في كثير من مقدمات الدواوين الحديثة ان لم تكن متقدمة على كثير منها.

فاذا كانت فائدة المقدمات اضاءة افضل سبل القراءة للمتلقي، فان مقدمة ابن خفاجة تمكنت من ذلك. لان ابن خفاجة لا يكتفي فيها بتوضيح مفهومه للشعر والنقد، بل يقرب القارئ من تجربته الشعرية بايقافه على أهم المحطات الكبرى فيها.

في تحقيق التعليقات

لكن ديوان ابن خفاجة في شكله الذي انتهى الينا، يثير سؤالا تطرحه علاقته بالمقدمة. والسؤال هو عن رواية اشعار الديوان. فهذه الاشعار مسبوقة دائما بجمل نثرية توضيحية. ولكنها مروية بضمير الغائب. أي أنها ليست على لسان المتكلم الذي من المفروض أن يكون هو صاحب الديوان. فنحن نطالع امثلة كالتالية:

١. وقال يتغزل في طريقة عبد المحسن الصورى وقد تقدم بعضها.

٢. وقال لاول شيبة طلعت في عذاره فافصحت بوعظه وانذاره.

٣. وقال نظما ونثرا يداعب غلاما قد بقل عذاره.

٤. وقال في الحماسة.

٥. ومما يشتمل على أوصاف.

٦. وقال في صفة نار وما تعلق بها.

٧. وقال في التشوق الى الأندلس وهو بالعدوة.

٨. وقال يمدح.

٩. وقال في لزوم مالا يلزم.

والإشكال الذي يطرحه هذا السؤال هو عما اذا كان يجب ان ناخذ هذه التمهيدات والتعليقات على أنها من وضع المؤلف. ومن شأن ذلك أن يثري تصوره النقدي عند تحليلنا، أم نعتبرها من زيادة الناسخين؟

فلا شك ان لهذه التمهيدات والتعليقات أهمية خاصة اذ بامكانها ان تجلي جوانب نظرية لا لتزامها بالامثلة التطبيقية. فاذا عاودنا تأمل الامثلة المذكورة. فسنلاحظ كشفها عن مبادىء شكلية كالمحاكاة في المثال الاول والايقاع في المثال التاسع والوصف في المثالين الخامس والسادس. وعن مبادئ موضوعية كالمثالين الثاني والسابع وعن مبادئ غرضية كالمثالين الرابع والخامس وعن مبادئ راجعة للشكل النوعي للشعر كالمثال الثالث.

وطالما بقينا غير متأكدين من نسبة تلك التعليقات للمؤلف، فانها تبقى مستبعدة. وقد حاول الدكتور السيد مصطفى غازي في تحقيقه لديوان ابن خفاجة تعليل هذه الظاهرة منتهيا الى

WWW.ATTAWEIL.COM

نسبتها للشاعر. يقول: "قد يبدو غريبا أن تنسب هذه المقدمات والتعليقات لابن خفاجة لانها وردت في نسخ الديوان بصفة الغائب. ولكن النظرة الفاحصة تدل دلالة قاطعة على أنها من انشائه. فهي أولا تحمل طابع أسلوبه النثري الذي يطالعنا به في رسائله وخطبة ديوانه. ثم هي تضم من الحقائق الذاتية والوقائع الخاصة والتواريخ المحددة ما لايمكن أن يحيط به غيره. وحسبنا مقدمة المقطعة ١١٧ ونصها في نسخ الديوان كما يلي: "ومما يتعلق بصفة سويداء وأنا استغفر الله منه وان لم يكن الا قولا". فمن المحال بداهة أن ترد المقدمة على هذا النحو وبصورة واحدة في جميع نسخ الديوان، ثم تكون لغير ابن خفاجة. ولعل ابن خفاجة استخدم صيغة الغائب في تقديم القطع والتعليق عليها تخففا من ثقل الحديث بصيغة المتكلم. أو لعله استخدم صيغة المتكلم اصلا ثم غيرها الرواة الى صيغة الغائب"[١]

غير ان تعليلات المحقق. رغم وجاهتها. غير دقيقة. فالمقارنة بين التعليقات واسلوب ابن خفاجة لا تؤكد نسبتها اليه. لان التعليقات قصيرة في مجملها لا تتجاوز عدة جمل وأحيانا جملة واحدة. وهي متفرقة متناثرة غير مكونة لنص يسمح بالمقارنة. كما انها توضيحية تقريرية وليست ابداعا لتقارن بابداع. فاذا كانت سمة الفرق واضحة بين نثر ابن خفاجة وشعره في النص الواحد. فكيف تكون غير واضحة بين النص وما ليست منه.

ان من الخصائص التوضيحية لهذه المقدمات، ربطها بين بعض النصوص وبعض الاحداث الشخصية للشاعر. على أن هذا ليس مسوغا. فقد اعتدنا أن نقرأ عند النقاد والمترجمين القدماء ذكرهم لوقائع عاشها الشعراء وربطهم اياها بشعرهم من غير أن تجمع صلة زمنية أو مكانية بين المترجم والمترجم له. ثم اننا لا نشك في أن تلاميذ ابن خفاجة وأصدقاءه ورواته كانوا على علم بالكثير من تفاصيل حياته لا سيما أن بعض القصائد موجهة لشخصيات معروفة في ذلك الوقت. وقصائد أخرى تفصح عن نفسها من خلال الغرض الذي تعالجه.

أما مقدمة المقطعة ١١٧ المشار اليها في تعليق السيد المحقق. فموطن الشاهد فيها ليس التعليق كله ولكن جملة الاستغفار الواردة معترضة. ولا نستبعد أن يكون أحد النساخ الاوائل تحرج من رواية المقطعة فأثبتها على مضض مستغفرا فتكون الجملة من وضعه. حيث أن ابن خفاجة لم يكن يستنكف أو يتحرج من اثبات هذا النوع من الشعر. وقد تشبث بهذا الموقف في مقدمة الديوان واتهم منتقديه بانهم "لا يعلمون".

لعل هذه المقدمات اذن من وضع غير ابن خفاجة. فلم يكن هناك شيء يدفعه لروايتها بضمير الغائب تخففا من ضمير المتكلم اذان مقدمة ديوانه ومجمل اشعره ورسائله مسودة من طرف ضمير المتكلم اذن ان مقدمة ديوانة ويحمل اشعارة ورسائلة مسودة من طرف ضمير المتكلم فلم لم يفكر ابن خفاجة في التخفف فيها من هذا الضمير؟

ولا نرى أن الرواة غيروا من ذلك. والا كانوا غيروا صيغة المقدمة التي وضعها المؤلف. ثم ان عندنا هنا دليلا على عدم نسبة تلك التعليقات لابن خفاجة. فهنا مقدمة نصها: "قال الوزير الفقيه أبو اسحق ابراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة. أعزه الله. يصدر بهذه الخطبة جملة من شعره وبعض ما اقترن من

نثره".

فهذه المقدمة تسبق مقدمة ابن خفاجة. والذي نميل اليه من اثباتها أنها تابعة لباقي المقدمات والتعليقات المبثوثة في الديوان. وأن واضعها جميعا واحد. قام بذلك توضيحا وتفسيرا وجمعا لشمل الديوان. وقد يكون احد تلامذة ابن خفاجة أو نساخه.

فعمل ابن خفاجة اذن على جمع نصوصه القديمة وتنقيحها والتقديم لها. اما التعليقات والاضافات التوضيحية فهي من طرف غيره.

بواعث الشعر

تتحدد بواعث الشعر كما يفصح عن ذلك ابن خفاجة في خمسة: اولها باعث الاستعداد التلقائي. وهو الذي يستشعر فيه الانسان ميلا الى فن أو شكل من اشكال الفنون.

وقد برز هذا الاستعداد عند ابن خفاجة منذ فترة مبكرة من حياته. حيث وجد في نفسه ميلا طاغيا لقراءة الادب. حتى اصبح بالنسبة له "مرتعا" يرتاده و "مشرعا" ومنبعا يرتوي منه باستمرار.

وكان ان تولد عن هذا الاستعداد باعث ثان هو محاكاة الاخرين. وهو باعث طبيعي التولد عن الاستعداد. حيث ان الانسان يبدأ في الغالب بتقليد الاخرين واستيحائهم في اعماله حتى ان أرسطو جعل المحاكاة غريزة في الانسان موضحا أنه ليس كل محاك ناجحا. فلا ينجح في الابداع الا من توفر فيه الاستعداد أو جبل عليه. وهؤلاء هم الشعراء المتفوقون في نظره. يقول ابن خفاجة: "أما بعد، فاني كنت والشباب يرف غضارة، ويخف بي غزارة، فاقوم طورا واقعد تارة .قد جنحت الى الادب ارتاده مرتعا، وارده مشرعا. فما تصفحت مثل شعر الرضي ومهيار الديلمي وعبد المحسن الصوري. وما حذا حذوه واخذ مأخذه. حتى تملكني من تلك المحاسن الرائعة الرائقة، والالفاظ الشفافة الشائقة، ما يناسب برد الشباب رقة وبرد الشراب ريقة، فما كان الا أن ملت اليه، واقبلت عليه، أروقة وارويه، وأحاول التشبه بواحد واحد فيه"[٢].

ولكن المحاكاة في حد ذاتها لا تخلق من الشاعر شاعرا ابداعيا. ولذلك كان لابد لابن خفاجة أن يتجه نحو بناء أسلوبيته الخاصة به. حيث أكد ذلك بتوسعه في مذهب الشعر وتطوير أدواته وامكاناته الفنية. ولم تعد المحاكاة هي الباعث للقول، بل أصبح هناك باعث ثالث تعبيري. يكون الشعر فيه استجابة لرغبة في الكتابة متولدة عن مواقف معينة قد يعيشها الشاعر أو يخلقها للتعبير. ومن تلك المواقف ما يكون ذاتيا حيث يعكس الشعر بعض المواقف العاطفية على حد ما نفهم من قول ابن خفاجة: "استخدمته شئوني، وجشمته في بعض الامكنة شجوني".

فابن خفاجة يؤكد لنا اذن هذه الاهمية التعبيرية التي قد تكون للشعر حين لا يوظف لخدمة الاخرين ولا ينفصل عن الشاعر المبدع نفسه. اي أن الشاعر في هذه المواقف لا يكون "غيريا" على حد تعبير من وصفوا شعرنا القديم بالغيرية.

ونحن نعد هذا المبدأ بالغ الاهمية. ولكنه لم يطور ويستثمر في نقدنا القديم بالشكل الذي حدث فيما بعد في أوربا. وقد كان لسيادة النظرة الكلاسيكية على النقد العربي نتيجة بقاء البعد التعبيري مهمشا وان لم يعدم.

ولم يتفتق هذا الفهم ويبلور الا بمجيء الرومنسية، حيث كسرت المبادئ الكلاسيكية

القـــائمة على المحاكاة الخارجية وعوضت بمبـــدأ المحاكاة التعبـــيرية التي ينكفئ فيها المبـــدع على استبـــطان الاحاســـيس والعواطف ســـاعيا لايجاد معادلات فنية لها في الابداع.

ولكن ابـــن خفاجة يخبرنا بـــأن هذا البـــاعث التعبيري انتهى بانقضاء فترة الشباب، وأنه انقطع عن الشعر لفترة ليست قصيرة حتى كاد ينساه الا في مواقف قليلة مثل "خطرة ببال أو زورة لمام أو كره حال، أو بعثة سلام".

ففي فترة كهولته تولد بـــاعث خارجي مصدره تولية أحد أبناء يوسف بـــن تاشـــفين الامير أبـــي اسحاق ابراهيم، على احدى امارات الاندلس. وكان على الشـــاعر أن يســـتجيب لهذا الدافع الخارجي بتحبير كتابات شعرية في تهنئته وتعظيمه واظهار الطاعة له.

على أن هذه العلاقة فيما نفهم من ابـــن خفاجة أصبحـــت بمثابـــة دافع يزدوج فيه الداخلي والخارجي. اذ أن الامير الجديد ما لبـــث أن شمله ببالغ احسانه ورعاه ورفعه بالتكريم والتشريف، حيث أصبح الشاعر أمام باعث الكتابة لرد الشكر والجميل، وأمام دافع الذات للتعبـــير عن الســـرور والابتهاج بحفاوة الامير دون استمناح واستعطاء وطمع في المكافأة لقناعته بها رزقه الله. يقول ابـــن خفاجة: "فعطفت هناك على نظم القوافي عناني، وســـننتها عند ذلك على معاطف ســـلطاني، مصطنعا، لا منتجعا ومستميلا لا مستنيلا. اكتفاء بما في يدي من عطايا منان، وعوارف جواد وهاب. خلق فأبدع ورزق فتبرع"[2].

ان هذه البواعث لا يمكن لها وان دفعت الى القول، أن تدفع لرواجه وشهرته ما لم يتحقق بـــاعث خارجي متمثل في الاستقبـــال والتداول المخصص لذلك القـــول. وهو البـــاعث الخامس الذي يذكره شاعرنا الناقد.

يعود هذا الباعث- بدءا- الى قناعة ابن خفاجة في أهمية الشـــعر وكونه "من خلال الجلة. وحـــلية النبلاء الجلة". فالقناعة بأهمية الشعر تنعكس دون شك حتى على طريقة القول نفسها. اذ الذي يقـــتنع أن الشـــعر مهم وله وظيفة غير الذي يراه تسلية وتفكها، أو الذي يرى أن لا جدوى من ورائه.

وأهمية الشعر عند ابن خفاجة راجعة لعاملين، الاول تعبيره عن دواخل النفس، والثاني الاحتفاء به عند المستقبلين: "فالفيته خفيفا، على الفضلاء لطيفا، عند النبلاء رفيعا"[3].

فابـــن خفاجة كان اذن من أنصار الشـــعر الذين ظلوا يواجهون هجوما مزدوجا: هجوم النقـــاد عليهم من جهة لدرجة جعلت ابـــن خفاجة يصف طائفة من منتقديه بـــان دوافعها شـــخصية غير علمية، وهجوم أنصار الانواع والانماط النثرية الذين احتفظوا للشعر بقيمة أدنى من التي خصوا بـــها الرســـالة الأدبـــية بحكم خدمتها الادارية للسلطان.

فإيمان ابـــن خفاجة بـــهذه الاهمية التي للشـــعر عند الوسط الذي كان يعيش فيه مثلت بالنسبة له دافعا تشـــجيعيا للكتابـــة والمواجهة النظرية التي وضح من خلالها مفهومه للشعر.

مفهوم الشعر

لا يخرج تعريف ابـــن خفاجة للشعر عما تقـــرر منذ بدايات النقد العربي المنظم عند ابن طباطبا وقـــدامة بـــن جعفر. فهو يعرف الشـــعر كالآتي: "والشعر يأتلف من معنى ولفظ وعروض وحـــرف روي"[5]. فهذا التعريف يحيل مباشـــرة على تعريف قدامة للشعر بكونه قولا موزونا مقفى يدل على

معنى. وهو نفس التعريف الذي نجده عند ابن سنان وابن منقذ وغيرهما من النقاد.

قد تطرح الاحالة على القدماء قضيتين، أولاهما النقص الذي يوصف به تعريف قدامة من حيث اغفاله بعض الجوانب الاخرى في العملية الشعرية وثانيتهما الاستعادة والتكرار اللتان توصف بهما الاقوال التي وردت بعد قدامة متبنية نفس التعريف. وتعريف ابن خفاجة من هذه الجهة غير خارج عن تعريف قدامة. فهو وان ذكر العروض والروي بدل الوزن والقافية، فلا اختلاف الاصطلاح فقط، حيث ان الاصطلاحات الاربعة تحيل على نفس الخاصيتين الاسلوبيتين للنمط الشعري في النوع المقصد منه.

ولا بد أن نذكر أن القضيتين المذكورتين. وقد طال ترديدهما عند النقاد المحدثين. مختلقتان أصلا وواهيتان. والسبب في اثارتهما عدم فهم قصد قدامة بالوزن والقافية والمعنى. فقد أخذ عليه أن الشعر لا يكون شعرا بالوزن والقافية والمعنى فقط. وان من القصائد ما تضمن ذلك من دون ان يدخل دائرة الشعر. وان الشعر حسب المفهوم "الجعفري" يغفل جوانب الصورة والعاطفة.

ولكي نرد على هذه المآخذ نقول بأن قدامة انما كان ينطلق من نوع شعري محدد هو القصيد. ولما كان القصيد متميزا بهيمنة الوزن والقافية فيه، كان اغفال ذكرهما بمثابة اسقاط لعنصرين مهيمنين رئيسين. ولو تعلق الامر بنوع شعري آخر تنزل فيه قيمة الوزن والقافية، كان المأخذ مقبولا. فلما تعلق بنوع القصيد كان ذكره واردا بل ضروريا لتحديد سمة بانية وأساسية في ذلك النوع من الشعر.

أما اصطلاح معنى. فهو أوسع من أن يحصر في قصائد تعليمية أو منظومات لتدوين بعض العلوم حيث تهبط القيمة الشعرية متحولة الى مجرد رص للكلمات قصد تأدية وتوصيل افكار جد محققة.

فالمعنى عند قدامة يتسع ليشمل كل الاغراض الشعرية بما فيها التشبيه الذي يعتبر من مكونات الصورة الادبية. وكذلك النسيب الذي يعتبر من الاغراض التعبيرية المفصحة عن مواقف عاطفية. أي أن المعنى ليس ضيقا بالشكل الذي يتصور معه تحول الشعر الى مجرد نظم. وقد أدخل قدامة كما هو معروف ستة أغراض شعرية ضمن المعنى واعتبر ان الستة المذكورة عنده بعضا مما اشتهر وعرف وليست ممثلة لكل ما يمكن أن يكون مجالا للشعر.

ولكي نؤكد هذا الفهم الجعفري للمعنى نستعين بنص لاسامة بن منقذ وهو ممن أخذوا تعريف قدامة بالحرف. يقول ابن منقذ في تحديد ما يقصد اليه الشعر ضمن دلالة اصطلاح معنى: "والمعاني التي يقصدها الشعراء وهي المدح والنسيب والمراثي والاوصاف"[1].

فيتأكد بهذا دخول الاوصاف في المعنى كما يتأكد أيضا أن ترديد التعريف الجعفري عند النقاد اللاحقين ليس من باب التكرار والاجترار وانما هو من باب تأكيد تعريف أقرب الى وفي الخصائص المهيمنة في نوع القصيد.

ان احتفاظ ابن خفاجة بالتعريف المذكور يمكن أن يفهم اذن على أنه اقرار بكون الخصائص المذكورة في التعريف هي الاساس في القصيد. وهذا الفهم انعكس على الممارسة الابداعية لابن خفاجة التي جاءت تطبيقا نسبيا له.

يضيف ابن خفاجة في ثنايا مقدمته بعض

الخصائص النوعية المكملة والمفسرة للتعريف الجعفري. وفي مقدمتها قوله ان "الشعر مأخذ وطريقة". فالمأخذ والطريقة هما عنده أيضا الاسلوب والمسلك. ففي عباراته وصف لبعض الشعراء بتفرد شخصي في الكتابة. فهناك: "طريقة عبد المحسن الصوري" و "مسلك الموسوي الرضى" و "طريقة مهيار" و "أساليب أبي الطيب التي منها " لف الغزل بالحماسة".

كل هذه اذن اصطلاحات لمفهوم واحد هو فرادة الشاعر وتميزه الاسلوبي عن غيره من الشعراء المبدعين في نفس النوع.

هذه الفرادة بارزة أسلوبيا عند ابن خفاجة لكونها تصب في هدف واحد، هو تأثيرها البالغ في المتلقي. لدرجة جعلت ابن خفاجة يعجب بها منذ شبابه ويحاكيها. يقول عن تاثير ذلك الشعر في المتلقي رغم اختلاف "الماخذ والطريقة: "ولكل واحد مأخذ طريف، يأخذ بمجامع النفوس ويطرز حواشي الطروس، ويبسط بين الندامى والكؤوس. ويلعب بالأحلام ويرقص بالروؤس"[٢].

يفهمنا ابن خفاجة اذن أن الشعر لا يكفي فيه أن يكون موزونا مقفى دالا على معنى، بل يجب أن ينفذ تأثيره الى المتلقي، فبذلك يكتسب شرعية الشعر. ثم أنه أيضا لا يكفي فيه أن يحدث هذه النتيجة ليكون حسنا. فلابد من أن يكون متميزا اسلوبيا حتى لا يصبح نمطا واحدا. اي أن الشاعر يجب أن تكون له فرادته ومنحاه الخاص في التعامل مع اللغة المحددة جوانبها في التعريف المذكور.

ان عناصر التعريف لا تعدو أن تكون المادة الخام التي يجب التصرف فيها تصرفا جد متميز ليكتسب الشاعر الفرادة ولفت الأنظار والاسماع.

وابن خفاجة يؤكد ذلك حين يصف اللفظ والقافية بأنهما "مادة" للشعر، في قوله ان ذهن الشاعر في آخر أيام عمره يتعب، و "المواد من ألفاظ وقوافٍ تقل" وكونه يخص اصطلاحي لفظ وقافية دون غيرهما. لا يدل على أن باقي العناصر غير ذات اهمية. فقد اقرها لها بادراجها في تعريف الشعر. فاللفظ والقافية في قولته الاخيرة يتسع مدلولهما على حد ما اتسع عند النقاد القدماء، ليشمل العملية الابداعية بكاملها. لان القافية قد تعني القصيدة. أما اللفظ فله ايقاعه ومعناه.

ثم نود أن نضيف الى مفهومه لهذه الاسلوبية في النوع المقصد، أن الاسلوب عنده لا توصف به الطريقة التي يسلكها شاعر ما فقط، بل حتى كل مسلك يتبع في القصيدة الواحدة دون غيرها.

يطبق ابن خفاجة هذا الفهم على مسلكه الابداعي الشخصي. فهو يقول عن شعره بعد أن عاود النظر فيه ونقحه، بانه "لا يوجد واحدا الا من طريق صيغته ولا من جهة عدده". فالشعر لايمكن أن يكون "واحدا" لان مسلكه الصيغي يختلف من قصيدة لاخرى. واذا عرفنا ان هذا الاختلاف يكون واضحا بين نفس القصيدة قبل تنقيحها وبعده، أدركنا الى أي حد يصل الاختلاف الاسلوبي المبني على تمايز "الصيغة".

ويرتبط مفهوم الشعر عند ابن خفاجة بقضايا أخرى منها نسبية الابداع في الشعر. فليس هناك ما يجعل الابداع كاملا وفي اقصى درجاته. اذ أن كل شعر - في نظره - ليس يخلو من عيوب تجر لنقده.

وحدد ابن خفاجة بواعث النقد في بواعث مبنية على تفحص علمي وأخرى تحركها دوافع شخصية قصدها التحامل والتجريح. والشعر ان لم

يتعرض لأحـــدهما دون الآخر تعرض لهما معا مهما كانت قيمته سابقة في الزمن أو حديثه، مبنية على البديهة أو المراجعة والتنقيح: "وان جميع الكلام، من مرتجل بديهي، ومنقح حولي، متقدما كان سابقا، أو تاليا لاحقا، مستهدف لمطعن طاعن"[٨].

ويندرج ضمن قوله هذا ايمانه بتوزيع الشعر الى بديهي مرتجل ومنقح. لكننا نلاحظ أنه لم يستعمل اصطلاح "مصنوع" في مقابل "بديهي" و "مطبوع" كما ورد عند نقاد آخرين. ونظن ان هذا الامر يعود للممارسة الشعرية من جهة، حيث قام في ختامها باعادة كتابة اغلب اشعاره، ومن جهة اخرى لكون اصطلاح "مصنوع" يشير الى الشعر الذي قد يظهر فيه التكلف وربما عدم الصدق الفني. في حين أن الشعر المنقح قد أصله بديهيا مرتجلا.

ان موقف المراجعة والتنقيح طرح عند ابن خفاجة قضية أخلاقية الشعر. حيث نجده يتشبث. رغم تقدمه في السن. باشعاره الاولى التي قالها أيام شبابه رغم ما يمكن أن توصف به من تهتك وخلاعة، من غير أن يحفل بما سماه "نقد أقوام في مساليخ أنعام، يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا".

هذا الموقف دفعه لطرح قضية الاخلاقية فنيا ضمن خصوصية النمط الشـــعري من جهة، وقضية الصدق والكذب في الادب من جهة أخرى.

فهو ينبه الذين "لا يعلمون" أن النمط الشعري متميز عن غيره من أنماط الخطاب بكونه المعبر المباشـــر عن تجارب الشـــاعر حـــتى الاكثر خصوصية منها. فهو النمط الوحـــيد الذي يستجاز "أن يقول القائل فيه" أني فعلت" و "أنى صنعت" من غير أن يكون وراء ذلك حقيقة"[٩].

يجوز في الشعر اذن أن يتكلم الشاعر عن نفسه ذاكرا كل ما يريد قوله من الافعال التي يمارسها. ولا يطلب منه أن يكون وراء ما يقول حقيقة. وبتعبير ابن خفاجة، "ليس القصد فيه الصدق، ولا يعاب فيه الكذب".

وهذه القضية أثيرت قبل ابن خفاجة. حيث ذهب قدامة الى أن الشاعر لا يجب أن يوصف بأنه صادق أو كاذب. وانما يطلب منه أن يكون مجيدا فيما يقوله من المعاني. في حين ذهب ابو هلال العسكري الى ان الشعر "اكثره بني على الكذب".

واذا كان قدامة جعل الاجادة هي البديل عن قضية الصدق والكذب، فابن خفاجة جعل "التخييل" هو البدليل عنها. لان الشعر عنده "القصد فيه التخييل" لا الصدق أو الكذب، مادام الكذب فه غر معيب والصدق فيه غير مقصود.

وقد ذهب الدكتور احسان عباس الى ان التخييل عند ابن خفاجة "يساوي الكذب". لكن الدكتور احسان عباس فيما نرى وقع تحت تأثير تعريف عبد القاهر الجرجاني للتخييل الوارد عنده في "أسرار البلاغة" وفيه يقول: "الذي أريده بالتخييل ههنا ما يثبت فيه الشاعر امرا هو غير ثابت أصلا، ويدعي دعوى لا طريق الى تحصيلها. ويقول قولا يخدع فيه نفسه ويريها ما لاترى"[١٠].

فاذا رجعنا لابن خفاجة، فسنجد أنه يتكلم على ثلاثة مفاهيم: التخييل والصدق والكذب مخرجا مفهومي الصدق والكذب من المقصدية الابداعية جاعلا التخييل محركا وهدفا لها. فالتخييل اذن غير الصدق والكذب. وقد ورد عند النقاد بمفاهيم مختلفة. فهو اذا دل عند عبد القاهر على الكذب،

دل عند ابـن الزملكاني على الصدق حـين يجعله "تصوير حقيقة الشيء" حتى كأنها ظاهرة للعيان. أي انه مرادف للمحاكاة التطبيقية. وهو عند نقاد آخرين كيحـيى بـن حمزة العلوي وفخر الدين الرازي وشـهاب الدين الحلبي والنويري مقـترن بـالتورية التي هي قـصد المعنى غير الظاهر من اللفظ حين يكون له معنيان.

لا نستطيع أن ننسب لاصطلاح "تخييل" عند ابـن خفاجة مفهوما محددا لانه لم يفصح عن ذلك. ولكننا قـد نقربـه من مفهوم الفلاسـفة المسلمين للتخييل باعتباره واسطة بين الصورة (المحاكاة) والمتلقي.

هناك قضية أخيرة نضيفها لحديثنا عن مفهوم ابن خفاجة للشعر. ترجع الى كسره مبدأ النقاء في النوع الادبي. يقول ابـن خفاجة عن تجربـته في هذا الموضوع: "ان من قـولنا ما كنا قـد افتتحـناه بمنثور، ورشحـناه بفقـر مزدوجة وشـذور، وها نحن قد أوردناه كما كنا سردناه، ونقلناه بحسب ما قـلناه، تعلقـا بحر من النثر يسـاق خلال النظم، وينتقل مطالعة عن قسم من الكلام الى قسم، ولعل ذلك ابسـط للنفس وانشـط، وأذهب مع الانس وأهذب"[٩].

فابـن خفاجة بـهذا المذهب يخرج عما تقـرر في النوع المقصد في الجاهلية والعصور الاسلامية الاولى الى هذا النوع من الكتابـة الذي يتناوب فيه الشـعر والنثر. وهو نوع نشـأ ونما في الادب العربـي عند عدد من الكتاب والشعراء على السواء.

وكان ابـن خفاجة يرفق بـعض رسائله بقصائد ويضمن رسائله مقطعات شعرية.

ومبـدأ التداخل النوعي يكسـر في فهم ابـن خفاجة، مبدأ وحدة الشكل. كما يكسر عند المتلقي رتابة الاستقبال. حيث يولد التناوب بين الشعري والنثري لذة التنقل بين صيغ مختلفة الانماط.

وهكذا يكتسب مفهوم الشعري في التصور النقدي لابن خفاجة، جوانب جد مركبة ومعقدة. منها ما يعود لتجربة الشعر عند المبدع في علاقـته بالقول الابـداعي، ومنها ما يعود لنمط القول الابـداعي في مبناه وصيغه، ومنها ما يعود للمتلقي وتفاعله مع تلك التجربة.

والهوامش

١. من مقـدمة المحقـق الدكتور السيد مصطفى غازي لديوان ابـن خفاجة. منشـأة المعارف. الاسـكندرية ١٩٦٠.

(٢، ٣، ٤، ٥) ـ مقدمة ابن خفاجة لديوانه ص: (٦، ٨، ٦، ٩).

٦) البـدع في نقـد الشـعر: اسامة بـن منقـذ تحقـيق د. احمد احمد بـدوي ود. حـامد عبـد المجيد. شـركة

(٧، ٨، ٩) ـ مقدمة ابن خفاجة لديوانه ص: (١٨، ١١، ١١).

١٠) اسرار البلاغة. عبـد القاهر الجرجاني. تحقيق ريتر دار المسيرة بيروت ط٢/١٩٨٣.

١١) مقدمة ابن خفاجة لديوانه ص ١٠.